المكان مظهراً سردياً في شعر ابن الرومي (ت 283هـ)

أ.د. علي كاظم محمد علي المصلاوي الباحث. أحمد سالم عبيد الشمري

جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

The place is a narrative appearance in Ibn al-Roumi's poetry(AH D. 283)

Prof.Dr. Ali Kadhem Muhammed Ali Al-Maslowi
Researcher. Ahmed Salim Obaid Al-Shimmary
University of karbala\ College of Education For Human Sciences
dr.ali.almaslawi@gmail.com ahamry99@gmail.com

Abstrast

This study deals with the study of an important pillar of the narrative process, but it is the place element in the poetry of Ibn al-Roumi, who is considered one of the great poets of the Abbasid period, as well as the literary product of Thar-Anmaz with the feature of narrative narration in his poetry, which led us to highlight his study. This study was divided into two paragraphs preceded by a prelude. The first part of the introduction is a brief description of the biography of the poet Ibn al-Roumi. In the first and second paragraphs, the talk was about the concept of place in two types: elif and ma'adi, indicating how the poet treated the place that took a distinct area of his poetry

الملخص:

تناول هذا البحث دراسة ركناً مهماً من اركان العملية السردية، إلاّ وهو عنصر المكان في شعر ابن الرومي الذي يعد من الشعراء الكبار في العصر العباسي، فضلاً عما يمتلكه من نتاج أدبي ثرّ انماز بوجود سمة السرد الروائي في شعره، الأمر الذي جعلنا نسلط الضوء على دراسته. وانقسمت هذه الدراسة على فقرتين سبقت بتمهيدٍ. اختص التمهيد بعرض نبذه موجزة عن سيرة الشاعر ابن الرومي، أما في الفقرتين الأولى والثانية فقد جاء الحديث منصباً عن مفهوم المكان بنوعيه: الأليف والمعادي، مع بيان كيفية تعامل الشاعر مع المكان الذي أخذ مساحة متميزة من شعره.

المقدمة:

شهد العصر العباسي ولادة نخبة متميزة من الشعراء الكبار كان ابن الرومي واحداً منهم، لما يمتلك من نتاج أدبي ثرّ انماز بوجود عدد من الخصائص الدرامية، فضلاً عن بروز سمة السرد الروائي في شعره، الأمر الذي جعلنا نسلط الضوء على دراسة عنصراً مهماً من عناصر العملية السردية في شعره والمتمثل بـ (المكان) بوصفه مظهراً سردياً بارزاً لدى الشاعر. وانتظمت هذه الدراسة في فقرتين يسبقها تمهيد، اختص التمهيد بعرض نبذه موجزة عن سيرة الشاعر ابن الرومي، أما في الفقرتين الأولى والثانية فقد جاء الحديث منصباً عن مفهوم المكان بنوعيه: الأليف والمعادي، مع بيان كيفية تعامل الشاعر مع المكان الذي أخذ مساحة متميزة من شعره. أما الخاتمة فقد أوجزتُ فيها الحديث عن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، ثم وضعتُ قائمة بأهم المصادر والمراجع التي أفادت منها الدراسة.

التمـهيد

تعريف موجز بالشاعر:

اسـمــه وكـنيتــه:

علي بن العباس بن جُريح وقيل جورجيس، المعروف بان الرومي مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله العباس بن عبد المطلب[1]. إما كنيته فيكنى أبا الحسن[2].

(1) ينظر: الاعلام: 297 و اعيان الشيعة: 8/ 250، البداية والنهاية: 11/ 74، تاريخ بغداد: 12 / 23، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات: 201، معجم الشعراء: 145، معجم الشعراء في العصر الجاهلي حتى سنة 2002: 445.
(2) ينظر: الوافي بالوفيات: 3 / 358، حصاد الهشيم: 221.

مــولــده ونــشــأتــه:

ولد ابن الرومي يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شهر رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين للهجرة ببغداد في الموضع المعروف بالعقيقة ودرب الختلية في دار بإزاء قصر عيسى بن جعفر بن المنصور[1].

أما نشأته فقد نشأ في بغداد في بيت على شيء من الثروة جاءت إليه من مواليه بني العباس أهل البيت المالك الذي كان ابن الرومي يعيش في كنفهم، وقد صرف ابن الرومي معظم أيامه في بغداد لا يبارحها قليلاً حتى يرجع إليها متشوقاً، والظاهر أنه قصد سامراء طلباً للرزق عندما انتقلت إليها الخلافة وطالت اقامته فيها ولم يحالفه الحظ فأكثر من ذكر الحنين إلى موطنه[2]، فقال:

(من الكامل)

بلدٌ صَحبْتُ به الشبيبة والصِّبا ولبستُ فيه العيْشَ وهو جديدُ
فإذا تمثَّل في الضمير رأيتُه وعليه أفنان الشباب تميدُ[3]

وكان ابوه صديقاً لبعض العلماء والأدباء منهم: محمد بن حبيب الراوية الضليع في اللغة والانساب فكان الشاعر يختلف عليه لهذه الصداقة وكان محمد بن حبيب يخصه لما يراه من ذكائه وحدِة ذهنه[4].

وقد التحق ابن الرومي ببعض الكتاتيب وكانت تعنى بتحفيظ القرآن وتلقين الناشئة النحو وبعض الأشعار والخطب وشيئاً من الحساب، ثم مضى يختلف إلى حلقات العلماء في المساجد تارة ليستمع إلى ابن حبيب الراوية، وتارة أخرى يستمع إلى بعض المحدثين والفقهاء، أو بعض رواد التاريخ والأخبار[5]. لذلك نشأ على نصيب وافر من علوم عصره، وقد ساهم كل ما ذكر أعلاه في صقل موهبته الشعرية.

ثــقافــتــه:

توافرت للشاعر ابن الرومي عدة من المؤهلات التي كان لها دورٌ مميزٌ في أن تصل ثقافته وتمنحه هذه المنزلة العلمية المتميزة، ويمكننا إجمال هذه المؤهلات بالآتي:

يعد القرآن الكريم أهم موردٍ نهل منه ابن الرومي، فكان للقصص القرآني مساحة ثقافية متميزة في ديوانه، فنجده استدعى أغلب قصص الأنبياء والمرسلين التي وردت في القرآن الكريم وضمنها في شعره، ومنها قصة يوسف وقصة إبراهيم (عليهما السلام)[6].

ومن موارد ثقافته أيضاً، تمتعه بذاكرة قوية، وحافظة حيّة ساعدته على تلقي العلوم والمعارف وجميع ألوان الثقافة، ويورد الحصري القيرواني خبراً عن حفظ ابن الرومي خمسة أبيات من السماع الأول، وهو في شيخوخته ومرضه[7].

ومن الموارد الأخرى، سعة اطلاعه على الأدب العربي القديم، فهي واسعة ثرّه إلى حدٍ يثير الاعجاب، فضمن ديوانه أبياتاً للشعراء الجاهليين والإسلاميين[8]، فضلاً عن أنّه كان معجباً بأبي تمام ومتتلمذاً على شعره، وأيضاً أعجب بالحسين بن الضحاك و الأخطل وكان يجاري أحياناً دعبلاً الخزاعي، أما في النثر فكان معجباً بأبي عثمان الجاحظ[9].

أما ثقافته اللغوية، فهي غنية جداً، وقد أحاط بأسرار اللغة العربية وتحدّى بعلمه معاصريه، قال عنه الشريف المرتضى في آماليه: ((وكان مفلقاً في الشعر واللغة))[1].

(1) ينظر: وفيات الاعيان: 2 / 42.، ابن الرومي حياته من شعره: 71.
(2) ينظر: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني: 296.
(3) ديوان ابن الرومي: 2 / 766.
(4) ينظر: معجم الادباء: 18 / 112.
(5) ينظر: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني: 297.
(6) ديوان ابن الرومي: 1 / 173، 243.
(7) ينظر: زهر الآداب: 2 / 532.
(8) ديوان ابن الرومي: 1/ 220، 4 / 1587، 5 / 1902.
(9) ينظر: الأغاني: 7 / 121.

ومن موارد ثقافته أيضاً نشوؤه في بغداد، إذْ كانت هذه المدينة مقراً ومنبعاً لرجال الفكر والعلم والأدب، فضلاً عن وجود دار الحكمة فيها والتي تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل، فكانت مدّ يده وعينه[2].

ولقد عبر ابن الرومي عن سعة ثقافته في ديوانه مفتخراً بنفسه، قائلاً: (من الخفيف)

فمتى ما أردتَ صاحب فحصٍ كنت ممّن يُشاركُ الحكماءَ
ومتى ما أردتَ قارضَ شعرٍ كنتُ ممّن يُساجلُ الشعراءَ
ومتى ما خطبتَ مني خطيباً جلّ خطبي ففاق بي الخطباءَ
ومتى حاول الرسائلَ رُسْلي بلّغتني بلاغتي البلغاءَ[3]

ثنـاء الـعلـماء عليـه:

اثنى العديد من العلماء والمؤرخين والأدباء قدماء ومحدثين على الشاعر ابن الرومي، فمن القدامى نذكر: قول المرزباني (ت 384 هـ): ((أشعر أهل زمانه بعد البحتري وأكثرهم شعراً وأحسنهم أوصافاً وأبلغهم هجاءً وأوسعهم افتناناً في سائر أجناس الشعر وضروبه وقوافيه))[4].

وكذلك تحدث عنه الخطيب البغدادي (ت 463 هـ)، قائلاً: ((أحد الشعراء المكثرين المجودين في الغزل، والمديح، والهجاء، والأوصاف، روى عنه غير واحد من أهل الأدب))[5]. وذكره أيضاً ابن خلكان (ت 681 هـ) في وفياته، قائلاً: ((هو صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة، فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقي فيه بقية))[6].

أما الأدباء المحدثون فكانت لهم وقفة مع ابن الرومي في مؤلفاتهم، ونذكر منهم: عباس محمود العقاد (ت 1964م)، تحدث عنه قائلاً: ((العبقري النادر أنه كان شاعراً حياً في جميع شعره))[7]. أما الأديب طه حسين (ت 1973م)، فقال عنه: ((فشخصية ابن الرومي من أحسن الشخصيات الإنسانية التي يجب أن تدرس، وأنا حين أقول الإنسانية أعني ما أقول، فالباحثون يجب ان يعنوا بابن الرومي لا أقول في الأدب وحده بل في الأدب والفلسفة وعلم النفس))[8]. وتحدث عنه أيضاً عمر فروخ (ت 1987م)، قائلاً: ((ابن الرومي شاعر مطبوع يجري في شعره على السليقة ولا يتكلف أبداً، على الرغم من أنه طويل النفس، فقد يبلغ بالقصيدة نحو ثلاثمائة بيتٍ وابن الرومي يهتم بالمعاني أكثر من اهتمامه بالألفاظ))[9].

وفـاتـه ومـدفـنـه:

توفي الشاعر ابن الرومي في يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادي الأولى سنة ثماني وثمانين، وقيل أربع وثمانين، وقيل ست وسبعين ومائتين ببغداد ودفن في مقبرة باب البستان بجانب الكرخ[10]، ويبدو أن هذه الرواية ضعيفة ينبغي عدم الأخذ بها ؛ وذلك لأن أغلب المصادر قد أجمعت على أنّه قد مات مسموماً بأمر من القاسم بن عبد الله الوهبي وزير المعتضد سنة 283 هـ، بعد أن دس له السم في طبق من الحلوى، وتذكر كتب التاريخ أنّ السبب في ذلك ما كان للشاعر من سلاطة لسان بعثت في قاتله الخوف من

(1) آمالي المرتضى: 1 / 239.
(2) ينظر: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني): 297.
(3) ديوان ابن الرومي: 1 / 81.
(4) معجم الشعراء: 145.
(5) تاريخ بغداد: 12 / 23.
(6) وفيات الأعيان: 2 / 42.
(7) ابن الرومي حياته من شعره: 346.
(8) من حديث الشعر والنثر: 267.
(9) تاريخ الأدب العربي (الأعصر العباسية): 46.
(10) وفيات الاعيان: 2 / 42.

هجائه[1]. فلما أكل الحلوى أحسّ بالسّم، فقال له الوزير القاسم: إلى أين تذهب ؟ فقال ابن الرومي: إلى الموضع الذي بعثتني إليه، فقال: سلّم على والدي. فقال: ما طريقي على النار. وأقام في داره أياماً يتعالج والطبيب يختلف إليه فما أجدى، حتى توفي[2].

المـكــان بوصفه مظهرًا سردياً في شــعــر ابن الــرومــي

مدخل:

يشكل المكان محوراً أساسياً من محاور العملية السردية داخل بنية النص الشعري، بفضل ما يمتلكه من امكانيات يستطيع من خلالها الشاعر ان يحقق غاياته الجمالية والفنية ؛ فضلاً عن اسهامه في تقريب المسافة بين المبدع " الشاعر " والمتلقي[3].

لقد ارتبط الإنسان بالمكان منذ خلقه، وكان لهذا الارتباط تأثيرٌ كبيرٌ في حياته ؛ لأنّه لابدَّ من مساحة معينة تحويه كي يستطيع من خلالها ممارسة افعاله ونشاطاته[4]. أما ارتباط الشاعر بالمكان فأنّه يختلف عن ارتباط الأنسان العادي به، وذلك لأنّه يعد عنصراً مهماً من عناصر تحقيق الايهام والهروب من عالم الواقع ولا يمكنه تحقيق ذلك إلا من خلال ارتباطه بالمكان[5]، وهذا لا يعني ان الشاعر يمكنه ان ينكر الواقع الذي يعيشه بل أنه يصور الواقع في صورة تبدوا ((أكثر حقيقة وحيوية وكمالاً من الحقيقة نفسها))[6].

ويمثل المكان جزءاً مهماً من صورة الواقع الفني في النص؛ إذ أنّه يحدد العلاقات بين النص الشعري والواقع المحيط به، وبذلك يخلق جمالية مميزة للعمل الأدبي[7]. وتكمن أهمية المكان من خلال وروجه في النص الشعري الذي يسهم في أن تتسم التجربة الشعرية بالواقعية والصدق الفني والحسية والأصالة، وأنّ العمل الادبي حيث يفقد المكان فهو يفقد خصوصيته ومن ثم أصالته[8]. وقد شكل المكان حضوراً واسعاً في شعر ابن الرومي، بوصفه أحد عناصر البناء السردي، وسنتطرق في مبحثنا هذا إلى دراسة أبرز الأمكنة التي وردت في شعره وتشكلت في شكل ثنائية (المكان الأليف / المكان المعادي) وسنجعل من هذه الثنائية اطاراً عاماً تنطلق منه دراستنا للمكان في شعر ابن الرومي.

أولاً: المـكـان الأليـف:

هو المكان المرتبط في الذكريات السعيدة، تلك الذكريات التي تشعرنا بالألفة والمحبة، فهو بمثابة نقطة الأمل والأمن والالفة والشعور بالطمأنينة والراحة والرضا لدى الشاعر[9]. فالمكان الأليف ليس مكاناً عادياً. وإنما هو مجموعة من الأشياء التي تتداخل مع بعضها، وينتج عن هذا التداخل قوة فعالة تغمرنا بالدفء والحماية والراحة والانسجام والتآلف مع محتوياتها[10].

وقد كان لهذا المكان حضوراً بارزاً في الشعر العربي القديم، ويتمثل هذا الحضور من خلال صورة الطلل التي تعد مظهراً بارزاً من مظاهر ألفة المكان التي تغنى فيها الشاعر العربي، وصور لنا من خلالها مدى تآلفه وارتباطه القوي بأرضه على الرغم ما كان يعانيه من قساوة العيش[11]، ومن هؤلاء الشعراء الشاعر ابن الرومي الذي نجده يوضح هذه الصورة من خلال مقدمةٍ طللية افتتح بها إحدى قصائده، قائلاً: (من الخفيف)

(1) ينظر: العمدة: 1 / 72.، معجم الشعراء: 145.
(2) ينظر: وفيات الاعيان: 2 / 43.
(3) ينظر: جماليات المكان، مجموعة باحثين: 34 – 37.
(4) ينظر: نظرية المكان في فلسفة ابن سينا: 18.
(5) ينظر: المكان عند شعراء الغزل في العصر الاموي: 8.
(6) بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ: 105.
(7) ينظر: إشكالية المكان في النص الادبي (دراسة نقدية): 394.
(8) ينظر: جماليات المكان، غاستون باشلار: 6- 11.
(9) المصدر نفسه: 10.
(10) ينظر البناء الفني في الرواية العربية في العراق: 2 / 99.
(11) ينظر: البنى السردية في شعر سعدي يوسف (رسالة ماجستير): 99.

طلَّ دمعٌ هُريق في الاطلالِ بعد إقوائها من الحُلاَّلِ
قلَّ ما طُلَّتِ الدماءُ اللواتي سفكَتْها سواكنُ الأطلالِ
أيُّ حقٍّ لها فيرعاه راعٍ من نوالٍ لأهلِها ووصالِ
فانْصِرافا عن الوقوف عليها إنها من مواقفِ الضُّلالِ
لن ترى الدهر موقفا لرشيدٍ يشترى النُّكس فيه بالابلالِ
ليس تُجدى على المُسائل دارٌ غيرَ هَيجْ السقام بعد اندمالِ[1]

ففي هذا النص نلحظُ أثراً واضحاً لأهمية المكان المتمثل "بالطلل" في نفسية الشاعر وهو بذلك يساير إلى حدٍ كبيرٍ الشعراء الذين سبقوه في هذا المجال. فابن الرومي حين ذكر (الأطلال، والمسائل، والديار) فهو لم يأت بشيءٍ جديد في الجانب، فهذه المعاني موجوده وسبقه الشعراء القدماء على ذكرها ؛ ولكنّه ذكرها كي يوضح للمتلقي / القارئ مدى قوة العلاقة القائمة بين الشاعر وأرضه، فتواصل الشاعر مع التراث في ذهنه قد يكون من أجل تحقيق الجانب الفني هذا من ناحية، أو قد تكون هذه الأماكن رموزاً لأشياء راسخة في ذهنه ولا يستطيع نسيانها فلجأ إلى استعمالها لتحقيق مبتغاه هذا من ناحية أخرى.

وفي مشهدٍ آخر نجده يقف على ديار الحبيبة، قائلاً: (من الطويل)

خليليّ عُوجا بالديار فإنما دعوُتكما باسم الخِلال لتفعلا
ديارِ التي أرعيتُها بارضَ الهوى وأمطرتُها وسميَّ دمعي أوّلا
جعلتُ لها صدري مَراداً ترودُه وبوّأتُها من حَبَّةَ القلبِ منزلا
فما علقتْ من قلبها النفسُ مَعْلَقاً ولا اتّخذتْ من بعدِها مُتعلَّلا[2]

تدور هذه الأبيات في دائرة واحدة لتشكل بذلك ثنائية جميلة أراد الشاعر ايصالها للمتلقي، هي ثنائية الماضي / الحاضر. فالماضي تتمثل صورته بالوقوف على هذه الديار / الأطلال. أما الحاضر فيتمثل باستذكار هذه الديار والدعوة لها بالسقيا، لكي تبقى خالدة في ذهن الشاعر، مفعمة بالحياة، وان لم يكن بها أحد. ولعلَّ توظيف الشاعر لعناصر المكان كان له الأثرُ الواضح في نفسيته، لا سيما وان كانت تلك الديار ديار الحبيبة.

ولم تكن الألفة المكانية في شعر ابن الرومي متمثلةً بالوقوف على الأطلال فقط، بل ان الألفة تكون في كل مكان ترتاح إليه النفس، لاسيما أن المكان قد أخذ مساحة متميزه من شعره، نحو قوله: (من الطويل)

ولي وَطَنٌ آليت ألا أبيعَهُ وألا أرى غيري له الدهرَ مالكا
عهْدتُ به شرخَ الشبابِ ونعمةً كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا
فقد ألفتْهُ النفسُ حتى كأنه لها جسدٌ إن بان غودِرْتُ هالكا
وحَببَ أوطانَ الرجالِ إليهمُ مآربُ قضَّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكَروا أوطانَهمُ ذكَّرتْهمُ عُهُودَ الصبا فيها فَحنُّوا لذلكا[3]

(1) ديوان ابن الرومي: 5 / 2054.
(2) ديوان ابن الرومي: 5 / 2008.
(3) المصدر نفسه: 5/ 1825- 1826.

يصور لنا ابن الرومي في هذا النص مدى تمسكه وحبه للمكان الذي نشأ وترعرع فيه على الرغم من الظلم والمآسي التي حلت به ألا أنّه بقيَ متمسكاً به، وهذا الأمر ليس بغريب عليه فهو من أكثر الشعراء الذين ذكروا الأوطان في أشعارهم[1]. فشغف ابن الرومي بالوطن وانشغاله به؛ لأنّه يمثل أرضه وحياته وكل ما لديه فهو ليس سلعة تباع وتشترى، فلا يستطيع ان يرى أحداً غيره يسكنه أو يملكه، لذا نجده قد عبر عنه بعاطفة قوية تجسد من خلالها الاحساس الصادق بالانتماء لهذا المكان؛ لأنَّ ((العلاقة بين الأنسان والمكان تذهب في الاتجاه النفسي مثل ذهابها في الاتجاه الحسي وتتسم تبعاً لذلك ببعض التجاذب والتفاعل بين الداخل والخارج))[2]. فالعلاقة النفسية الناتجة من ارتباط الشاعر بالمكان تخلقُ جوّ حسيٍّ واضحٌ في النص لا يكاد يفارق خيال الشاعر، فأصبح المكان ثيمة أساسية في تشكيل النص، وأيضاً من الأماكن الأليفة التي ذكرها ابن الرومي في شعره توظيفه لمدينتي واسط وسامراء في احدى قصائده، قائلاً: (من الطويل)

أحبّائي كم لي نحوكم من تحية أحَمِّلُها هَّباتِ كل جنوبِ
فلا تتركوا ردَّ السلام إذا جرت شمالٌ على نائي المحل غريبِ
غريب له نفسان: نفسٌ بواسطٍ ونفس بسامرّا بكفٍّ حبيبِ[3]

يأتي توظيف المكان في هذه الأبيات تعبيراً عن العاطفة الصادقة لدى الشاعر، ولقد أسهمت هذه العاطفة ومن خلال الحوار المتحقق داخل النص في اضفاء الواقعية على المشهد، فصور لنا الشاعر حاله كيف أصبح نتيجة للشوق والحنين، فقد انقسم على نصفين: الجسم منه في مكانٍ، والروح في مكانٍ آخر. وقد كان لثقافته المكانية الواسعة والتي أخذت حيزاً كبيراً من شعره أثرٌ واضحٌ في تصوير هذا المشهد، ونجده أيضاً في قصيدةٍ أخرى يوظف العديد من الأماكن، قائلاً: (من الوافر)

ذكرتكَ حين ألقتْ بي عصاها الـ نّوى يوما بنهرِ أبي الخصيبِ
فما برحتْ عن العِبْرَيْن حتَّى رُددْنَ إلى الأبُلَّه من قريبِ
حططنَ بواسط من بعد سبعٍ وقد مالَ الشروقُ إلى الغروبِ
ولما شارفتْ بغدادَ تسري بنا، والليل مَزْرُرُ الجيوب
ورحنا مسرعينَ اليكَ شوقاً مسارعةَ العليلِ إلى الطبيبِ
لكي نُرْوي نفوساً صاديات بقرب منك للصادي مُصيبِ
وجاوزنا قرى بغداد حتى دللنَ عليكَ أصواتُ الغروبِ
وهيَّجت الصَّبا لما تبدَّتْ بريا منك في القلب الكئيبِ
ووجهنا بغرة سُرَّ مَنْ را وجوها أكذبتْ ظنَّ الكذوبِ
وردَّتْ ماء وجهي بعد ظِمْءٍ وسودَ غدائري بعد المشيبِ
فسبحانَ المؤلَف عن شتاتٍ ومن أدنى البعيد من القريبِ[4]

يلاحظ في هذا النص الشعري طغيان المساحة القصصية، فابن الرومي يسرد لنا حكاية رحلته هذه من بدايتها إلى نهايتها، راسماً اطارها الزماني والمكاني فضلاً عن استحضار الأماكن الدالة على الألفة والتي زارها خلال رحلته هذه (أبي الخصيب، الأبُلَّه، واسط، بغداد، سامراء) وعلى الرغم من بعد المسافات بين هذه الأماكن فأنها مثلت الأساس الذي بنيت عليه هذه القصيدة، ولقد توافقت

(1) ينظر: معجم الشعراء: 129.
(2) فلسفة المكان في الشعر العربي: 20.
(3) ديوان ابن الرومي: 1 / 333 – 334.
(4) ديوان ابن الرومي: 1/ 325- 328.

وحدة الزمان والمكان عبر انتقال الشاعر ما بين الأزمنة (الشروق، الغروب، الليل) لسرد مشاهد هذه الرحلة مع كل ما يرافقها من انفعالات ومشاعر.

ثانياً: المكـــان المـعـادي:

هو المكان الذي ينعدم فيه الاحساس بالأمن والطمأنينة، فهو يثير في النفس القلق والخوف وعدم الشعور بالراحة؛ لأنّه يثير الخوف والرعب والعداء والكراهية[1]، ولهذا السبب نجد أن الشخصية تحاول التحرر منه بشتى الوسائل؛ لأنّه ((مكان الكراهية والصراع))[2]، الذي يمارس ضغوطاً على النفس ويبدو أن سبب احساس هؤلاء الشعراء – ومنهم ابن الرومي– بالغربة وعدم ألفة المكان يعود لعدّة عوامل: منها العزلة والابتعاد عن الآخرين، فضلاً عن الحزن الذي يمر به الشاعر لفترة من الزمن، وكذلك فقدان الأمن مع من يحبون[3]، ولعلَّ هذا السبب الأخير ينطبق تماماً على ابن الرومي فهو كما يرى أحد الباحثين المعاصرين ((أول من حبّب الموت إلى غيره وكأنما كان يراه خلاصاً من حياته ومن الناس ومن الأصدقاء الذين لا ينصفونه))[4].

وفي شعر ابن الرومي وجدنا أماكن غير أليفة قد وردت، منها قوله من قصيدةٍ يهجو فيها مدينة واسط ويتشوق إلى مسكنه في سامراء، إذ يقول: (من المتقارب)

سُقِيتُنَّ يا مَنْزِلاتِ الهوى بوادي الشريحةِ صوبَ الحيا
ولا زالَ مسرحُ غِزلانُكُنَّ مربعَ المحلَّةِ والمنتأَى
وجاورتِ الروضَ حيثُ الحسا نُ تغضُّ النهى من عيونِ المها
فبدِّلتُ منكن في واسطٍ مساكنَ أنباطِ أهلِ القُرى
ومن سُرَّ من را وروضاتها حشوشاً تقابلُ وسط الملا
ومن حسنِ أوجه سكّانها قروداً تزحَّرُ تحت الغضا
نحافَ الجسومِ خفافَ الحلو مِ صغارَ الرؤوسِ عظامَ اللحى
فلا قدّستْ واسط بلدةً ولا جادها من سحابٍ روا[5]

في هذا النص الشعري سرد لنا الشاعر ما يجول بداخله من مشاعرِ حُبٍ وشوق تجاه مكان ألفته المتمثل بمدينة سامراء، في الوقت نفسه نجده قد أظهر الكراهية والعداء لمدينة واسط، فشعوره تجاه هذه المدينة أصبح عدائياً بسبب سوء الإقامة فيها وبغضه لأهلها الذين وصفهم بالقرود، فهو يرى أن هذه المدينة قد أصبحت رمزاً للإنسانية المعذبة ؛ وأنها تمثل طبيعة المكان العدائي فهي كالسجن بالنسبة له تمارس فيها ضغوط الإقامة الجبرية. ونجد أن الدلالة المكانية في هذه الأبيات جاءت مُرتبطةٌ بالغرض الشعري الذي سيقت من أجله، ألا وهو غرض الهجاء[6] في صورة شعريةٍ تبين مدى استهزائه بهذه المدينة وعدم حبه لأهلها، ولقد تنوع ذكر الأماكن الغير أليفة في شعر ابن الرومي، ومن تلك الأماكن القبر فنراه في قصيدةٍ تمثل موعظة بديعة يصور لنا ما يحدث للإنسان بعد موته، بقوله:

(من مجزوء الكامل)

نَبلُ الرَّدى يَقصِدْن قصدَكْ فأجِدَّ قَبْلَ الموت حَدّكْ
قَدْ عَدَّ قبْلَكَ مَنْ رأيْ تَ ولَسْتَ تلْبَثُ أن يَعُدَّكْ
فدَع البطالة والغوا ية جانباً وعليك رشْدَكْ

(1) ينظر: المكان في الشعر المهجري: 143.
(2) جماليات المكان: 31.
(3) ينظر: الحياة والموت في شعر أبي القاسم الشابي (دراسة في الثنائيات) (رسالة ماجستير): 66.
(4) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني: 318.
(5) ديوان ابن الرومي: 1 / 124 – 125.
(6) ينظر: المظاهر السردية في شعر الصاحب بن عباد (رسالة ماجستير): 204.

فكأنني بك قد نُعيـ تَ وقد بكى الباكونَ فَقْدَكْ
وتركْتَ منزِلكَ المشيـ دَ مُعَطَّلاً، وسكَنْتَ لحدَكْ
وخلْوتَ في بيت البلى وخَلا بكَ الملَكانِ وَحْدكْ
وسلاكَ أهلُك كلُهم ونسوا على الأيّام عهدكْ
يتمتعون بما جمعْ تَ ولا يروْنَ عليه حَمْدَكْ
مُتمهَّدون وأنت تحـ تَ الرَّمس يرعى الدّودُ جلْدَكْ
قد سلّموكَ إلى الضّريـ حِ ووسَّدوا بالترابِ حَدَّكْ[1]

في هذا النص نجد الشاعر قد ربط بين الأحداث والشخصيات من خلال توظيفه لعناصر السرد، فتحققت بذلك وظيفة المكان ودلالته المتمثلة بالمكان الغيبي الأخروي وهو ((زمان غيبي فضلاً عن كونه مكاناً غيبياً))[2]، وظّفه الشاعر من طريق تقنية الاستباق الزمني. ونجد أيضا الشاعر قد وافق بين الأحداث والشخصيات ليسرد لنا بذلك صورة حية تصور ما يحدث للإنسان إذا حلَّ في ذلك المكان العدائي المتمثل بالقبر الذي يمثل ضرورة من الضرورات التي لا غنى للإنسان عنها. وقد ((يكون القبر في الحقية هو النهاية أو المحطة الاخيرة))[3] لكل الأبعاد المكانية التي يشغلها الإنسان في الحياة، ولابن الرومي أيضا قصيدة رثائية سرد فيها العديد من المشاهد والأحداث، قائلاً: (من الطويل)

تَوخَّى حِمامُ الموت أوْسَطَ صبيتي فلله كيفَ اختار واسطَةَ العِقْدِ
على حينَ شمْتُ الخيْرَ من لَمَحاتِهِ وآنَسْتُ من أفْعاله آيةَ الرُّشْدِ
طَوَاهُ الرَّدَى عنِّي فأضحى مَزارُهُ بعيداً على قُرْبٍ قريباً على بُعْدِ
لقد أنْجَزَتْ فيه المنايا وعيدها وأخْلفَتِ الآمالُ ما كان من وعْدِ
لقد قلَّ بين المهد واللَّحد لُبْثُهُ فلم ينْسَ عهْدَ المهْد إذ ضُمَّ في اللَّحدِ
... ...
وأنتَ وإن أُفرِدْتَ في دار وَحْشَةٍ فإني بدارِ الأنْسِ في وحشة الفَرْدِ
أودُّ إذا ما الموتُ أوْفَدَ مَعْشَرا إلى عَسْكَر الاموات أنِّي من الوفدِ[4]

عرض الشاعر في هذا النص العديد من الأحداث التي حصلت جراء فقده ولده محمد، وكان خير سارد لها، وقد ارتبطت هذه الأحداث برابطٍ زمني كان بمثابة المحرك الأوّل لها. ولقد وفق ابن الرومي في اتخاذ المكان وسيلةً لسردِ ما في داخلهِ من لوعة وحزن نتيجة فقد ولده، فهو كالجوهرة التي توضع وسط العقد وبفقدها يفقد العقد كل جماله، فلقد انقض عليه الموت بوحشيته ليفترسه وينقله سريعاً إلى مكانٍ فاقد الألفة ولا يحبذه الشاعر، ألا وهو القبر الذي أبدع الشاعر في وصفه له فهو يرى أن ولده قريب بجسده الذي فارقته الحياة، بعيد بالروح التي عرجت إلى السماء فأصبح بعيد المزار مع قرب الديار[5]؛ لأنَّ الموت قدر محتوم لا فرار منه يخضع له الإنسان مستسلماً مهما طال الدهر أو قصر.

(1) ديوان ابن الرومي: 5 / 1869 – 1870.
(2) المكان في شعر أبي العلاء المعري (رسالة ماجستير): 132.
(3) جماليات المكان، مجموعة باحثين: 5.
(4) ديوان ابن الرومي: 2 / 624 – 625.
(5) ينظر: دراسات في الأدب العباسي: 143.

ويتبين لنا من خلال ما تقدم كيفية تعامل الشاعر ابن الرومي مع المكان، الذي أخذ مساحة متميزة من شعره[1]، وقد كان للمكان الأليف النصيب الأكبر من هذه الأمكنة ؛ ولعلَّ السبب في ذلك يعود إلى احساس الشاعر بالانتماء الحقيقي له، أي أنّه المكان الذي وجد فيه ذاته.

الـخاتـمــة:

توصلت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج التي لا بدَّ لنا من أن نقف لنثبتها، وكانت كالآتي:

- شكل المكان في شعر ابن الرومي مظهراً سردياً بارزاً لا يمكن الاستغناء عنه، بل أصبح بمثابة الأرضية المناسبة التي شيد عليها الشاعر / الراوي بناءه السردي.
- برزت أهمية عنصر المكان في شعر ابن الرومي واضحة وذلك من خلال اسهامه في المساعدة على فهم الجو النفسي أو الوضع النفسي للعمل القصصي.
- لقد أخذ عنصر المكن مساحة متميزة في شعر ابن الرومي بنوعيه (الأليف والمعادي)، على الرغم من أن المكان الأليف كان له النصيب الأكبر في ديوانه، ولعلَّ السبب في ذلك يعود إلى إحساس الشاعر / الراوي بالانتماء الحقيقي له، أي أنّه المكان الذي وجد فيه ذاته.

قـائمـة الـمصـادر والـمراجـع:

- القرآن الكريم
- إشكالية المكان في النص الأدبي (دراسات نقدية)، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ط1، 1986م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1979م.
- الأغاني، أبي الفرج علي بن الحسين الاصبهاني (ت 356هـ)، مؤسسة جمال، (د.ت).
- ابن الرومي حياته من شعره، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).
- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، حققه وأخرجه وعلق عليه: السيد حسن الأمين، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط5، 1998م.
- البداية والنهاية في التاريخ، ابن كثير، إسماعيل بن محمد (ت 774هـ)، مطبعة السعادة، القاهرة، 1932م.
- بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، د. سيزا قاسم، الهيئة العامة للكتاب، مصر، 1984م.
- البناء الفني في الرواية العربية في العراق – بناء السرد، د. شجاع مسلم العاني، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1994م.
- تاريخ الأدب العربي (الأعصر العباسية)، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1968م.
- تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني)، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط6، 1984م.
- تاريخ بغداد، للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت 463هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت).
- جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1984م.
- جماليات المكان، مجموعة باحثين، (د. سيزا أحمد قاسم وآخرون)، مطبعة دار قرطبة، عيون المقالات للنشر، الدار البيضاء، ط2، 1988م.
- حصاد الهشيم، إبراهيم عبد القادر المازني، المطبعة العصرية، القاهرة، 1954م.
- دراسات في الادب العباسي، أو رشفات من رحيق الأدب، عبد السلام سرحان، مكتبة القاهرة، مصر، مطبعة الفجالة الجديدة، 1965م.

(1) ينظر: ديوان ابن الرومي: 97/1، 1/ 124، 1/ 171، 2/ 484، 2/ 579، 2/ 627، 2/ 726، 3/ 965، 3/ 1212، 4/ 1598، 5 / 1938، 5/ 1944.

- ديوان ابن الرومي، أبي الحسن علي بن العباس بن جريح (ت 283هـ)، تحقيق: الدكتور حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط3، 2003م.
- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، محمد باقر الخوانساري، مكتبة إسماعليان، طهران، 1970م.
- زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت 453هـ)، شرحه د. زكي مبارك، دار الجيل، ط4، 1972م.
- فلسفة المكان في الشعر العربي (قراءة موضوعاتية جمالية)، د. حبيب مؤنسي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م.
- معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الرومي الحموي (ت 626هـ)، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، ط1، 1991م.
- معجم الشعراء في العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.
- معجم الشعراء، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت 384هـ)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، 1960م.
- من حديث الشعر والنثر، د. طه حسين، دار الكتاب اللبناني، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1989م.
- نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، حسن مجيد العبيدي، مراجعة وتقديم: د. عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1987م.
- الوافي بالوفيات، أبو الصّفاء صلاح الدين بن خليل بن أيبك بن عبد الله الألبَكي الصَّفديّ الدِّمشقي (ت 764هـ)، اعتناء: س. ويدرنك، ط2، 1974م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان (ت 681هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د. ت).

الرسائل والأطاريح الجامعية:

- البنى السردية في شعر سعدي يوسف، علي داخل فرج الخزعلي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، 2005م.
- الحياة والموت في شعر أبي القاسم الشابي (دراسة في الثنائيات)، لطيف محمد حسن (رسالة ماجستير)، كلية الآداب، جامعة صلاح الدين، 1989م.
- المظاهر السردية في شعر الصاحب بن عباد، بشار لطيف جواد، (رسالة ماجستير)، جامعة كربلاء، كلية التربية للعلوم الإنسانية، 2014 م.
- المكان عند شعراء الغزل في العصر الأموي، بشائر أمير عبد السادة الفتلاوي، (رسالة ماجستير)، جامعة بابل، كلية التربية للعلوم الإنسانية، 2003م.
- المكان في الشعر المهجري، حكيم صبري عبد الله، (رسالة ماجستير)، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، 2001م.